أبحاث في سنن
تغير النفس والمجتمع

فقدان التوازن الاجتماعي

جودت سعيد

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى: 1398 هـ - 1978م
الطبعة الثانية: 1400 هـ - 1980م
الطبعة الثالثة: 1404 هـ - 1984م

عدد نسخ الطبعة الثالثة (3000) نسخة
طبعت في مطبعة زيد بن ثابت الأنصاري
بموافقة وزارة الإعلام - مديرية الرقابة
تحت رقم 9938 بتاريخ 1983/10/26

بسم الله الرحمن الرحيم

الحَمْدُ للهِ

وَسَلامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصطفَى

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا

إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ العَلِيمُ

مقدمة

بقلم: ليلى سعيد

هذا الكتيِّب رسالة من مجموعة رسائل تلقَّيتها من أخي جودت سعيد عام 1968، أيام محنة لم تكن فيها من صلة بيننا سوى الرسائل، وكنت أُطلع عليها من كنت على صلة معهم من الإخوة والأخوات، إلا أنه كان في نفسي ومازال: إن هذه الرسائل ينبغي أن تُنشر، لما فيها من موضوعات شيِّقة ومفيدة.

ولهذه الرسالة قصة قصيرة، تبدأ منذ أن تعرّفنا على الأخت التي تُجري ترتيبات السفر إلى أمريكيا للالتحاق بزوجها الذي يتابع دراسته هناك.

ومضت فترة، ونحن على صلة معها نتدارس ونتباحث، ومما زاد من اهتمامنا بها معرفتنا بزوجها، وما له من مزايا في الجدّ والاجتهاد.

ولما كان يتطرق الحديث إلى اللباس الشرعي، كانت بعض الأخوات يُشجِّعها على ارتداء الجلباب عملاً بقوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ، وَبَنَاتِكَ، وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ: يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ، ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا) الأحزاب -59.

وكانت تُجيبهن: إن أسْرتي لا تسمح لي بذلك، وإنني سأواجهُ مِنْ كلِّ مَنْ حولي مِنْ أهلي وأقاربي معارضة شديدة لا أستطيع مجابهتها، وإنني سأسافر قريباً إلى بلد الحرية، إلى أمريكيا، وهناك لا يتدخل أحد في شؤوني الخاصة، ألبس ما أشاء، وما يروق لي، وإني انتظر اليوم الذي سأسافر فيه، حتى ارتدي الجلباب وأسافر به، وإن زوجي سيسرّه ذلك.

وفعلاً: حان موعد سفرها، وكانت قد أعدَّت جلباباً أنيقاً مع خِمار، فلبسته وسافرت ... ثم أرسلت بعد وقت قريب إلى إحدى الأخوات رسالة تُعلمها فيها بأنها بعد وصولها خلعت الجلباب، لأنها شعرت بأنها إن بقيت بهذا اللباس فستكون منبوذة وستكون حبيسة البيت، وذكرت الأدلَّة على ذلك بأن الذين كانوا في استقبالها في المطار من أصدقاء زوجها قد أظهروا جفاء وانسحبوا حين رأوها بلباسها هذا، وأنها

بعد أن فكرت، وقلَّبت الأمر، كشفت أنها كانت غبيَّة حين كانت تظن أنها لا تستطيع أن تكون مسلمة داعية بدون حجاب، وأنها رجعت إلى الآيات المتعلقة بالحجاب فوجدت أنها نزلت بعد تكوّن المجتمع الإسلامي، وأن ظروفها تختلف عن ظروف المجتمع الإسلامي، وما إلى هنالك من المسوغات والمبررات...

لقد كان الخبر غريباً على الأخوات، ومفاجئاً لهنّ، واختلفت الغرابة والمفاجأة عند كل واحدة منهن بقدر ما عندها من تصورات ومفاهيم.

وقصَّتنا هذه، ليست قصة تخصُّ أفراداً معينين فحسب، لا إنها قصة متكررة مع كل من يمر في مثل مراحلهم، ولعل أطراف القصة تختلف من فرد إلى آخر، إلا أن الأصل والسبب واحد، ألا وهو: العجز عن التوازن بين المبدأ والواقع.

والآن.. وبعد مضي عقد من الزمن، وبعد أن قُدِّر لي ولعدد من أخواتي في الله رؤية العالم الغربي، والتعرف هناك على عدد جيد من النخبة التي تتابع الاختصاصات في مجالات عديدة من بلدان العالم الإسلامي، إخوة وأخوات، وسمعت ورأيت من مظاهر تلك القصة وذلك:

– وفي صورة الشاب الذي يمد يده ليزيح عن رأس عروسه التي اصطحبها معه إلى أوروبا غطاء شعرها قائلاً لم يبقَ لهذا دور في هذه البلاد.

– وفي صورة الزوجة التي لا تكترث لرغبة زوجها المؤمن، وإلحاحه على التزام شرع الله في لباسها مدَّية: أن اللباس الشرعي لا يتناسب مع الاختصاص الذي يمارسه زوجها أو الذي تمارسه هي، غي حين رأيت مؤمنات ملتزمات في الاختصاص نفسه.

– وفي صورة مجموعة من زوجات الأطباء كنَّ يحاولن أن يكون غطاء الرأس يتناسب مع بعض التقليعات الأجنبية حتى ينفين عن أنفسهن أيّ مظهر يدلّ على أنَّهنّ! شرقيات، ومنتميات إلى العالم المتخلِّف. وبعضهنَّ رفضنَ الاعتراف بذلك، وحاولن إيجاد مبررات أخرى، ألا أن الصريحات منهنّ ذكرنَ لي بوضوح دوافعهن إلى اختيار تلك الأشكال ...

– وكذلك في صورة امرأة وسط مجلس يضمُّ رجالاً ونساءً، في لباس غير محتشم على أقلّ تقدير ... وقت قلتُ لها بعد أن انفضَّ المجلس وانفردت بها: فهمنا أنكن تبغون بكشف الشعر وأطراف الجسم إظهار المفاتن والجمال، ولكن وصل الأمر إلى إظهار ما ليس بجمال!! وأيُ جمال تبغون من شف أجزاء من الجذع؟! إن الأمر خرج من الجمال إلى الابتذال!!.

قالت مفسِّرة ومبررة: لقد كنت محجبة، وقضيت سنوات الدراسة الجامعية مع التمسك بحجابي، ولما تخرجت ودخلت العمل تراجعت، ولما تزوجت وسافرت لم أجد حولي سنداً يدعمني، لذلك ما استطعت المحافظة على ما كنتُ عليه، وتركت الحجاب، وتركت الصلاة!! ولم يبق لديَّ سوى صيام شهر رمضان.

وقفت عند قولها لم أجد حولي سنداً يدعمني. وكانت تقصد أنها لم تجد أشخاصاً يدعمونها، ويشجِّعونها، ولكن انتقل ذهني إلى سند من نوع آخر، فلو كانت عندها فكرة تدعمها، ألم يكن في الإمكان الاستمرار؟ . . .

وهكذا.. بعد أن تكررت القصة، وزادت تجاربي، شعرت بأهمية عرض هذه الأفكار، كي تتاح لها أن تصل إلى أيدي إخواننا وأخواتنا، خاصة المقيمين منهم على محور موسكو – واشنطن، ذلك المحور الذي يتيه فيه من لا قدرة له على التوازن بين المبدأ والواقع، أو بين النظرية والتاريخ، أو بين الفكرة والتطبيق.

إن الفكرة التي تفقد السند الاجتماعي تتعرض للزلزلة، والمسلم في الوضع الراهن يُعاني من هذه المشكلة، فالمسلم في عمومه لا يعاني من أزمة في مبدئه الديني، وإنما يعاني من عجزه عن حل مشكلاته وفق السنن الاجتماعية، وهذا العجز ينعكس بدوره على مبدئه، ومعظم الذين يفقدون الإسلام من أهله أو من غير أهله، ينطلقون من هذه النظرة.

وهذا الموضوع بحاجة إلى تفصيل أدق كي يكون واضحاً، فإن وضوحه يحلُّ كثيراً من المشكلات. وقد أكد الأستاذ مالك بن نبي – رحمه الله – على هذا الجانب في فصل: العالم الإسلامي وفكرة الأفرو آسيوية، من كتابه « فكرة الأفريقية الآسيوية ».

ويمكن إلقاء ضوء أكثر وضوحاً على هذه الفكرة بأسلوب آخر، هو أسلوب الإخلاص والصواب، فقد يكون الإنسان مخلصاً جداً، يبذل نفسه وماله في سبيل مبدئه، إلا أن إخلاصه هذا غير كافٍ للنجاح إن لم يكن عنده علمٌ في كيف يخدمُ مبدأه.

هذه هي مشكلة العالم الإسلامي: مشكلة الإخلاص والصواب، أو مشكلة المبدأ والواقع، أو مشكلة الفكرة والتطبيق، أو مشكلة الانفصام الاجتماعي، أو مشكلة الإيمان والعلم.

وتلكم هي القصة كما كتبتُها إلى أخي جودت، ولنتأمل الآن رسالته الجوابية التي يكشف فيها الأسباب الرئيسية التي تؤدي إلى فقدان التوازن الاجتماعي، ذلك أن كشف هذه الأسباب يجعلنا نتبين بعض سنن تغيير النفس والمجتمع.

وهو الذي كتب إليّ يقول:

. . . وأشعر أنني أُطِلُّ على العالم من خلالك . . . ولئن كانت الرسالة موجهة إليّ، فالأفكار لكل من يبحث عن الصواب.

الخميس 1398/6/25 هـ

1978/6/1م

الفصل الأول

بين المبدأ وضغط الواقع

« إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ». النساء – 77.

... وأما خبر الأخت التي خلعت جلبابها، فليس غريباً عليَّ، بل هو الحدث الطبيعي، ومع اعترافي بذكاء الرجل وتديُّن المرأة فلا يكفي ما عندهما للسيطرة على الموضوع – لا هما ، ولا من هم أكمل منهما – بل كثيرون وكثيرات من خيرة من نعرفهم إذا تعرضوا لمثل هذه الظروف يحدث لهم الحال نفسها، فكرة وسلوكاً. فمن ناحية التصرف السلوكي يتغير وضعهم، وأما التصرف الفكري فيظهر في محاولة إيجاد المسوّغ العقلي لهذا التصرف السلوكي، بل والشرعي أيضاً.

ولو فُهم ما يتطلبه اللباس الإسلامي من الثقافة أو الروح التي تعطي المبرر والمسوّغ له، لساعد هذا الفهم على حل كثير من المشكلات، ولكن الانفصام الاجتماعي الذي يعانيه مسلم اليوم الذي يفقده توازنه في هذا الموضوع، فلا يتمكن من أن يكيّف ضغط الواقع مع مقتضيات المبدأ إلا بشيء من التلفيق، وبيان هذا بحاجة إلى شيء من الشرح.

وهنا تتوارد عليَّ أفكار كثيرة وخواطر تعين على تبيين الموضوع، لا أستطيع شرحها كلها، ولكن لابد من الإشارة إلى بعضها، لأن الحادثة كانت غريبة على الأخوات، والغرابة تأتي من خفاء بعض الأسباب، وهنا ينبغي أن أبادر وأقول: إني لم أغير رأيي في الأخ وزوجه، فهما نموذجان جيدان من مجتمعنا، ولا أزال عند تقديري لهما، وعندي أمل فيهما، فإن ما يتمتع به الأخ من الأخلاق والذكاء – أعني: الإخلاص والصواب – أكبر بكثير مما عند غيره. ومن شروط الحياة الاجتماعية أن الثغرات لا تُفْتَحُ إلا عندما يكون التخلُّف، كما في مجتمعنا، وإنه لمن النموذج الممتاز، وحتى حين يقوقع وينسحب من مجال الفكر والعمل الإسلامي لا يكون عمله غريباً، وإن كان ثباته مُتوقَّعاً أكثر من غيره.

ألا تذكرين الكثير من الرعيل الأول من دعاة الفكر الإسلامي: كيف انحسروا؟ إلا أن نوع الانحسار يختلف من شكل إلى آخر، وإن كان المآل في النهاية واحداً وهو الانحسار. وإننا كثيراً ما نعجز عن رؤية السبب الواحد للنماذج المختلفة، فالانسحاب من العمل الإسلامي إذا أردنا شرحه – كما يفعلون في البحوث النفسية الاجتماعية – نقول: إن الإنسان الذي فقد مُسَوّغ عيشه في المجتمع، يترك المجتمع كما يترك أيّ إنسان الوظيفة التي لم تعدْ لديه مسَوّغٌ للتعلق بها. ولهذا التصرف أمثلة كثيرة متفاوتة في الوضوح والغموض، إلا أن الانسحاب من المجتمع يأخذ صوراً شتَّى.

ففي بعض الأحيان يأخذ الانسحاب صورة الانتحار: كأن يلقي الإنسان بنفسه من جبلٍ، أو في نهرٍ، فهذه الحالة معناها أن الإنسان الذي فعل هذا، شعر بأنه أنهى دوره في المجتمع، ولم يَعُدْ لوجوده مبرر، لذلك أنهى حياته بشكلٍ ما، وانسحب من المجتمع على هذه الصورة. إن شعوره بأن الناس يرونه في وضع معيب، أو مليء باليأس، هو الذي يورطه، وإنه لو اقتنع بأن موقف الناس منه ليس بهذا، وإنه قادر على محو ماضيه، فإنه لن ينتحر.

ولكن بعض المنسحبين الذين أنهوا دورهم لا يفعلون هكذا، ولا يتصرّفون التصرّف نفسه، وإن كان الدافع واحداً في الحالين (وهو الشعور بأنه لم يعد له مبرر، ولا مهمة لوجوده في هذا المجتمع)، فهذا النوع الثاني لا ينهي حياته الاجتماعية انتحاراً بالسكِّين، ولكن يعتزل المجتمع، ويفرّ من أداء الواجب، لأنه لم يبق له مبرر. وهذا الذي قيل فيه، فهناك من ينتحر بالسيف، وهناك من ينتحر بالسّبْحَةِ.

كما أن هناك انتحاراً آخر يحصل عند البعض، حيث يتركون دينهم، ويتبعون الأهواء والشهوات، وهذا الانتحار غير صامت، بل له ضجيج، وصاحبه منسحب من مجتمع إلى مجتمع آخر، فهو لم يعد يخدم المجتمع الذي نشأ فيه وأنشأه، وكان هو ثمرة من ثمراته، بل يخدم مجتمعاً آخر ليس له أي فَضْلٍ عليه.

وبالرغم من اختلاف هذه الأشكال، إلا أن النتيجة واحدة، وهي: أن مثلاً معيناً قد خسر فرداً من أتباعه، وأنّ الدافع إلى الانسحاب واحد أيضاً في عنوانه العام وهو: عدم بقاء مبرر للوجود في هذا المجتمع الخاص، كما يبدو لهم، فهم يبحثون عن مكان آخر غير هذا المكان، والطرُّق إليه كثيرة، فهذا ذهب إلى قبره، وذاك ذهب إلى صومعته أو كهفه، والثالث ذهب إلى مكان يليق به أيضاً.

فقد يختلف هؤلاء أخلاقياً بالنسبة لمبدأ معين، ولكن النتيجة الاجتماعية واحدة، فمن الناحية الأخلاقية يقال للأول: منتحر، وللثاني: زاهد معتزل، وللثالث: مُتهتِّك أو تقدّمي، حسب الذوق الأخلاقي للمتحدِّث.

إلا أن كلاً منهم ترك مجتمعه، فالكل ماتوا اجتماعياً بالنسبة لمجتمع معين. فالأول أضاف إلى موته الاجتماعي موتاً عضوياً، والثاني أضاف موتاً فكرياً، والثالث أضاف إلى الموت الاجتماعي والفكري شللاً وظيفياً، فهؤلاء ماتوا كما تموت خلايا الجسد حين يصيبه الضعف.

والانسحاب من المجتمع يكون على درجات، والإنسان الذي ينسحب قد لا يخرج من المجتمع، أو عليه دفعة واحدة، وإنما على مراحل، والذي يهمنُّا هو الدافع الذي يحمل الإنسان على سلوك ما.

إن الضعف الذي أصاب الجسد الإسلامي، والذي من أعراضه موت خلاياه بالشكل الذي بيَّنّاه هو فقدان المبرر، أو ما يسميه توينبي: الشعور بالأناقة. وهو الشعور بالتميُّز والتفوق الحضاري، ليس تفوق فرد على فرد، وإنما تفوق مجتمع على مجتمع، وحضارة على حضارة.

فالمسلم لم يعد يشعر بأنه يحمل شيئاً يحتاج العالم إليه، وهذا الأمر بحاجة إلى تأمُّل، ومسلم اليوم لا يشعر ولا يدرك، أي: لا هو مقتنع غيبياً ولا عقليّاً، لأن غيبيتهُ فَقَدت السند العقلي، ومن يدرك الحقائق لا يغْتَرُّ بأقوال من زعموا الكمال، لأنهم يتكلمون بالبطولات وهم منهزمون، ولا يفطنون إلى الذي ينقصهم، أو ينقص آليتهم الاجتماعية، حتى يستطيع الفرد في المجتمع أن يكون منسجماً بين سلوكه وأفكاره، وهذا الوضع السيئ مصاب به مجتمعنا من أخمصه إلى مفرقه، ولكن العموم في البليَّة يخفِّف من الإحساس بالمشكلة، أو يضعف إدراكها، ولكن ضعف الإدراك للمشكلة ليس حلاً لها، إذ أن الحلْ المنجي للمشكلة يتطلَّب أرقى الاحساسات وأوعى المدارك لحلِّها لا التبلُّد فيها.

فكما أن الجسد الذي أصابه الخلل، وأخذت تموت خلاياه له دواء، كذلك الجسد الاجتماعي الذي أصابه الخلل، وبدأ أفراده يموتون الموت الاجتماعي الذي أشرنا إليه، له دواء أيضاً، ولقد ضرب مالك بن نبي[1] – رحمه الله – مثلاً مضحكاً لمظاهر المجتمع المريض الذي يتجسد مرضه في قادته حين يحاولون أن يثبتوا شخصياتهم، بأن يلبسوا الطربوش مثلاً في المجتمعات الدولية: « وفي عصر شاع فيه الأسلوب العالمي بتأثير امتداد الحضارة الغربية التي وضعت طابعها على العالم كله، يصبح من المضحك في عصر كهذا أن نلفت النظر إلينا بطابع من طوابع القرون الوسطى، فمن الممكن أن نكون سلبيين من الناحية السياسية بمجرد تفصل بسيط لثيابنا، أو حركة نبديها، أو هيئة نرتديها، وحين نرى وزيراً مسلماً يرتدي البزّة الأوروبية، ويحتفظ بطربوشه الأحمر من قبيل النعرة الوطنية خلال حفلة ذات صبغة دولية، فإننا نشعر بأنه قد اختار السلبية مهما كلفه ذلك من ثمن، وهي سلبية معجونة من خليط العجرفة الصبيانية والجهل بالعالم الراهن في اتجاهه العام.

وتشعر أيضاً بأن الأمر يتصل بمجتمع بدأت حضارته من القدم ولم تصل بعد إلى الرأس.. ».

ولقد رأيت هذا المشهد حين ذهبت أول مرة إلى مصر، حيث كان الملك ورئيس الوزراء يلبسون الطرابيش الحمر، التي لها بقايا الآن في شوارع دمشق أيضاً. مع أنهم كانوا يلبسون البزَّة الإفرنجية، ويضعون رباط العنق.

ولكن نلاحظ أن هناك خروجاً على هذا الأسلوب من الاتصال مع العالم عند « غاندي »، فلقد كان غاندي يشعر أنه يملك شيئاً: العالم في حاجة إليه، فكان مقتنعاً بعقله، وبإيمانه الغيبي بضرورة حاجة الإنسانية إلى ما يدعو إليه، فكان لذلك يشعر بضرورة الانسحاب لأن له هذه المهمَّة، ولم يشعر أيضاً بضرورة التقليد للآخرين بأن يغيرِّ ن مظهره، لأنه لم يدخل إلى المجتمع العالمي ليقلده، بل لأجل أن يغيرِّه،

---

[1] ابن نبي – مالك ، فكرة الأفريقية الآسيوية – ترجمة عبد الصبور شاهين ، (القاهرة : دار العروبة) ، ص 283 . الطبعة بدون تاريخ .

فلا يمكن أن يحصل انسجام بين هذين الأمرين: بين محاولة تغيير العالم، وبين تقليده، فالمقلِّد لا يمكن أن يكون هادياً، ولا يمكنه أن يهدي من يقلِّده، لأنه إن فعل، فعمله هذا عَبَثٌ وسخرية، ويجلب له سخرية العالم، لهذا لم يغيرِّ غاندي لباسه، ولم يلبس بزَّةً إفرنجيةً بعد أن حمل مهمته العالمية، بل كان كثيراً ما يمشي حافي القدمين، حاسر الرأس، كأيّ هندي آخر من أبناء أمته.

ولكن هذا الشعور الذي كان يحمله زعيم الهند أنقذ الهند إلى حدٍّ ما، مما لم يستطع أن ينقذنا منه قادتنا الذين أشرفوا على قيادتنا. ون « نهرو » لم يغير لباسه الوطني، وإن ابنته أنديرا لا تشعر بالمنبوذية حين تمثل العالم الثالث بلباسها الوطني، مع أن لكلمة التي استخدمتها الأخت المسلمة في التعبير عن وضعها إن بقيت بلباسها كلمة: « الشعور بالمنبوذية ». هذه الكلمة موطنها الهند، ولا يتذكر أحد « المنبوذ » إلا ويخطر في باله منبوذو الهند، لأن المنبوذية من عقائد الهند. وليس منشأ المنبوذية في ارضٍ أو وطنٍ، وإنما هي حالة نفسية، وتخلُّفٌ نفسي في أساسها، هذا التخلُّف هو الشعور بالاستضعاف الذي هو « نفي الأنا » أو على حسب تعبير محمد إقبال – رحمه الله –: « رمز نفي الذات ».

إن الشعور بالأناقة (الشعور بالتميُّز الحضاري)، والشعور بالمنبوذية، شعوران يمثلان بدء الحضارة، وانهيار الحضارة، فالحضارة تبدأ بالشعور بالأناقة أو (بالاهتداء إلى الصراط السوي للخروج من الأزمات الملحَّة)، بينما الشعور بالمنبوذية شعور باليأس، وانسداد الطرق أمام المشكلات والأزمات.

وفي السير في الأرض، وفي النظر إلى سِيَرِ الذين خلوا من قبل، نجد هاتين الحالتين النفسيتين تلازمان النهوض والانحطاط، فقد ظلَّ العالم الغربيُّ حتى قرنين مضيا، يحمل شعور الأناقة، كما ظلَّ العالم الإسلامي ما يقرب من عشرة قرون يحمل هذا الشعور.

وهذان الشعوران يتناوبان البشر والمجتمعات، كما قال الله تعالى: (وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ ...) آل عمران – 140، في درجات متفاوتة، بحيث نرى بقايا الشعور بالأناقة في بداية دورة الشعور بالمنبوذية، كما نرى الشعور بالمنبوذية يبرز بدرجات متفاوتة قبل وبعد بدء الشعور بالأناقة، ويمكن تفسير كثير من المواقف التي تمثل أدوار الحضارة في نماذج معينة: فعند المسلمين نراه في نموذج ربعي بن عامر، وعقبة بن نافع[1]، وفي نموذج غاندي عند الهند، وفي نموذج نابليون عند فرنسا حين خطب في جنده بجوار الأهرامات ممتلئاً حماسة وشعوراً بالأناقة.

---

[1] فربعي بن عامر حين دخل بلاد الفرس ، بل حين دخل على مالك الفرس ، لم يكن يشعر بالمنبوذية ، أو بالدونيَّة ، بل كان يشعر بأن هؤلاء الذين بيدهم حطام الدنيا وحكمها ، إنما هم مكبَّلون بغرائزهم ، وإن إنسانيتهم قد ضاعت باستبعاد بعضهم لبعض ، لقد دخل عليهم ربعي وهو يحمل حالة نفسية يمكن تسميتها : رسالة إنقاذ للآخرين ، ولقد استنشق ربعي هذه الحالة

والشعور بالأناقة قد يكون في صورة انتصار عسكري، أو تكنولوجي، أو عدالة اجتماعية، كما في الثورة البلشفية، أو في صورة حقوق إنسان كما في الثورة الفرنسية ن وأما عند المسلمين ففي صرة القيام بدور حمل رسالة إنقاذ للبشر، وإخراجهم من عبودية بعضهم لبعض، والمتمثلة في قوله تعالى: (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ألا نَعْبُدَ إِلا اللَّهَ وَلّا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ولا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ..) آل عمران – 64. وقد تجلىَّ هذا بوضوح في موقف ربعي بن عامر رضي الله عنه وعقبة بن نافع – رحمه الله – وأمثالهما كثير في التاريخ الإسلامي.

كما أنه يمكن العثور بوضوح على نماذج من هذا في الحضارة اليونانية والرومانية، والحضارة القديمة إذا ما رجعنا إليها.

كما نجد النماذج لحالات الشعور بالمنبوذية في هذه الحضارات كلِّها. وهنا ينبغي أن نذكر ملحوظة وهي: أن التماثل النفسي في الدوافع والسلوك لا يستدعي تماثلاً في الحكم الأُخْرَويِّ، كما في قوله تعالى: (وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ..) البقرة – 165. فالتماثل الموجود في الآية هو التماثل الذي نعنيه فيما يتعلَّق بالدوافع في الحياة الاجتماعية لأعمال الناس وليس تماثلاً في الحكم الأخلاقي، أو الأخروي، وقد بحث الأستاذ مالك بن نبي – رحمه الله – هذا الموضوع – في كتاب: « مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي » تحت عنوان: « صِدْقُ الأفكار وفعَّاليتها »، أي صحَّتها أخلاقياً، وإن فشلت في صلاحيتها لحل المشكلات في وقتٍ ما، وذلك لأمور ترجع إلى البشر وليس إلى المبدأ، أو أنها صالحة نسبياً لحل المشكلات ولكنها غير صحيحة تماماً.

فمن الخطأ أن نطلب من الأخت أن ترتفع إلى مستوى حالة الشعور بالأناقة (كرامة الإيمان)، وهي لا تزال في مرحلة الشعور بالمنبوذية، وهذا هو التعبير المطلوب من قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ) الرعد – 11.

كما يمكن التعبير عن هذا المعنى بعبارة أخرى، كأن نقول: من الخطأ أن نطلب من الأخت أن تُبرِزَ شخصية المرأة المسلمة في لباسها ومواقفها، قبل أن نطلب من زوجها أن يخرج من نطاق التقليد والتبعية للآخرين في لباسهم ومواقفهم، ولبيان ذلك نضرب مثالاً من الهند – منشأ كلمة المنبوذية –: لقد استطاعت أنديرا أن تلتزم بلباسها الشعبي، وبتراث ثقافتها، وتقاليد شعبها، عندما كان أبوها نهرو ملتزماً

النفسية من مجتمع الرسول صلى الله عليه وسلم حيث كان الإنسان يُرَبَّى على أنه صاحب رسالة وأن من واجبه الصعود ببني آدم إلى مستوى الإنسان المكرّم .

بالتراث الشعبي واللباس الوطني، محليًّاً وعالمياً. واستمرت أنديرا بالتزامها هذا عندما كان زوجها – وهو فيروز غاندي[1] – قد نشأ في بيت يلتزم ويحترم تقاليد أمته، ويظهر في المجتمع المحلي والعالمي بلباسه الوطني.

ونحن حين يكون وضعنا، ووضع الأخ المسلم مثل (جون كنيدي) في مظهره في أمريكا، أو في شوارع دمشق، فمن الصعب أن تقتدي الأخت إلا بـ (جاكلين)[1].

وحين أقول هذا، فأنا أبعد الناس من أن أحُطَّ من قدر أخٍ معين، أو أخت معينة، وإنما أصفُ مجتمعاً يعجز أن يمدّ الفرد الذي ينشأ فيه بالشروط الضرورية للتوازن الصحيح في المجتمع البشري الذي لا يشعر بأنه يساهم في بنائه بشيء مهما كان يسيراً..

وهذا المجتمع ليس ممثِّلهُ فلان وفلانة فقط، وإنما أُمثِّلهُ أنا، وتمثلهُ أنت، وحين يختلط الأمر علينا فلا نعرف جوانب النقص فينا، يحول ذلك بيننا وبين ن نتَّخذ الموقف الصحيح في كثير من أمور حياتنا، وإن إمكان إصلاح نقائصنا ليس بإنكارها، ولا بإخفائها، وإنما بمواجهتها بصراحة، لأن الكتمان ليس بدء الشفاء، وفي هذا الموضوع بالذات، وعند هذه النقطة أيضاً، أريد أن لا يُفهم الموضوع على أنه نقد لاذع مُوَجَّهٌ إلى شخص معين، فليس هذا موضوعي البتة، وإن كان سبباً في أن أتناول الموضوع على سعته وعمقه، وهذا الذي أريد أن أنبِّهَ إليه كي يؤتي البحث أُكُلَهُ وفائدته، لا أن يُصرف إلى حادثة جزئية.

وشيء آخر أشعر أنه ينبغي عليَّ التنبيه إليه أيضاً، وهو ضرب المثل بـ (غاندي) أو (نهرو) أو (أنديرا)، فالمسلم يشعر بوخزٍ في نفسه حين يسمع بهذه الأسماء، أو بنوع من الاستكبار، أو الترفُّع، أو الكبرياء المنحطة، ولا سيما حين يسمع ذلك في صدد البحث في المشكلة الإسلامية، فكيف اختار المثَلَ – لموضوعي – من نماذج المجوس، وليس من نوع آخر؟!!

الواقع ؛ إن الموضوع إن لم يُشرح بشيء واقعي يصدم نفس المسلم، ويهزّه، لا يكون مجدياً في إيقاظه وشفائه، بل لا يساعده على تقريب الموضوع.

فإذا كان المجال الإسلامي الذي نعيشه في حالة منبوذية، فالأولى أن نُذَكِّر المسلم بما يشعره بذلك، وساعده على أن يخجل من نفسه، لا أن يستمر في غروره، فينبغي أن يعلم المسلم المستوى المتوازن الذي وصل إليه في هذا العصر، حتى المنبوذين من المجوس، بينما نحن نضطر إلى أن نذكر أسماءهم ومثالهم للمسلم

---

[1] ينتسب فيروز غاندي إلى الباريسيين – أي المجوس – ولم تكن بينه وبين زعيم الهند المهاتما غاندي أية علاقة حيث كان غاندي هندوكياً .

[1] حبذا لو تمكن القارئ من فهم القانون والسنَّة مجردين من الأشخاص ، فقد تتماثل الدوافع مع تغير المكان والزمان والأشخاص ، ولا تتغير الحقائق ، ولا يتغير شيء من الحقائق أبداً ، وهذا ما قال عنه : (تشابهت قلوبهم) ولا نقصد هنا من ذكر الأسماء سوى الاستعانة لفهم الموضوع بالأمثال . وكما قال الأقدمون حين كانوا موضوعيين : (مناقشة الأمثال ليس من دأب الرجال) ، وإن الأشخاص المذكورين هنا هم الذين كانوا في بؤرة المسرح حين كتب هذا الموضوع .

ليتمكن أن يحصل (هو) على التوازن، أو الشعور بالذات الذي فقده، فالمسلم فقد ذاته، ونسي نفسه، وجعل العالم الذي يعيش فيه، فهو تائه حائر.

وهنا نستوضح الدَّرْكَ الذي انحدر إليه المسلم، فالذين يريدون أن يرفعوا من نفس المسلم المتهاوية، ينبغي أن يعرفوا أنها في القاع والقعر، ولا أعني أبداً استحالة انتشاله، بل أعني أن انتشاله لا يكون بشعوذات غبية، ولا بفرنجاتٍ عفوية، وإنما يكون بمعرفة سنة الله، فمعرفة السنة هي المعجزة، وبتطبيق القانون والسنة سنحصل على أكبر ما يمكن تصوّره عند منتظري المعجزات، أو ما تأتي به الظروف والحظوظ التي يحلم بها أصحاب أحلام اليقظة الذين: (وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ..) الكهف - 18.

أيتها الأخوات المؤمنات:

سرنَ بجدٍّ ونشاط لفهم الحياة، ولفهم هذا الكون في الآفاق والأنفس، وستصلن بلك إلى نتائج حسنة، وإن هذه المرحلة التي نحن فيها، ونعالج فيها هذه المشكلات التي تعترضنا وتضطرنا إلى التفكير فيها، وإن هذه المشكلات وهذه الأسئلة المحرجة التي توضع أمامنا، إن هذا كله معناه: أننا نواجه المشكلة مواجهة سافرة، فلا تَراجُعَ، ولا تردُّد، (وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ) العنكبوت - 69. فسْرِنَ والله معَكُنّ..

وإن زادنا في حل المشكلة، وفي هذه المواجهة، يكون بمقدار ما عندنا من صبر وجلدٍ على تَفَهُّم القضيَّة، ومصدر الصبر والجلد هو: (اليقين بأن الطريق الذي نسير عليه، يؤدي إلى الهدف الذي نسعى إليه)[1]، فقد يكون عندنا هدف، ولكن ليس عندنا اليقين بأن هذه الطريق موصلة إليه، فلا نصبر على السير فيها.

وقد لا يكون عند أحدنا هدف واضح، فلا يرى أنه يستحق الفائدة من المسير، إذن مشكلتنا في النهاية ترجع إلى وضوح الهدف الذي نسعى إليه، وإلى اليقين بأن الطريق الذي نسير عليه هو المؤدي إلى هذا الهدف، هذا جوهر الموضوع. ومعنى وضوح الهدف يختلف حسب مستواه، سواء: في الأسرة، أو في المجتمع الخاص، أو في المجتمع العالمي.

فعلى مستوى الأسرة ينبغي أن يكون الهدف مما يرجعه بالعائد الحسن عليها، كأن يقلّلُ من مشكلاتها، ويرفع من مستواها. وكذلك الأمر بالنسبة للمجتمع الخاص، أن يكون الهدف محقّقاً خيره، مزيلاً لشروره. وعلى المستوى العالمي ينبغي أن يكون تحقيق هذا الهدف هو الذي يحلّ المشكلة العالمية المعقَّدة اليوم.

---

[1] أي تأمل الأحداث البسيطة التي تقع تحت سمعنا وبصرنا ، ومعرفة أسبابها ، والانتقال منها إلى أحداث أخرى معقدة أكثر منها ، إلا أنها مثلها أيضاً في إمكان رؤية أسبابها ، وهذا ما نحن بصدده .

فيما سبق أشرت إلى جانب مما يفقده المسلم في مجتمعه الذي يعجز أن يقدم له توازنه ومسوّغات حياته في المجتمع البشري، ولكن أريد أن أشير هنا إلى جانب آخر يعجز فيه المجتمع أن يقدّم للفرد الذي ينشأ فيه مبرّر موته، فكما يعطي المجتمع للإنسان مبرر حياته، كذلك يعطيه مبرر الموت إذا اقتضى الأمر، فإذا عجز المجتمع أن يقدِّم لمن ينشأ فيه وظيفة معينة، يمكن أن يخدم بها المجتمع البشري، فإنه يجعل من الفرد الذي ينشأ فيه فرداً مقلِّداً، يبدأ التطوُّر، أو التقليد من عند رجليه، كالزعماء الذين أشرت إليهم، لا كما وقف غاندي شاهداً على العصر، ونذراً له بالثبور، إن لم يقلع عن أفكاره، فهذا الرجل استقى من مجتمعه ومن المجتمع العالمي ما أمكنه أن يحرّره من التقليد، فكان يوجِّه اللوم العنيف لمواطنيه الذين يقلِّدون الغرب في كتابه الذي أسماه: « هذا مذهبي » أو: (حضارتهم وخلاصنا)، وأوضح أن كُرههُ للإنكليز لم يكن بسبب لون بشرتهم، (كما يكره الأمريكيون البيض السكان الزنوج)، وغنما كان يكرههم بسبب أفكارهم التي يمثلون بها فرعون حين علا في الأرض، وجعل أهلها شيعاً، يستضعف طائفة منهم، يُذبِّح أبناءهم، ويستحي نساءهم، كان غاندي يكره كل هندي يريد أن يصير مثل الإنجليز، وكان يقول للهنود: « إذا كان كرهنا للإنكليز أنهم في بلادنا، وإذا طردناهم سنصير مثلهم، فلا يقلّ كرهي للهندي الذي يستذلّ إخوانه عن الإنكليزي الذي يستذل الهندي »، لأن عدم التمييز بين هذين الأمرين والخلط بينهما يؤدي إلى عدم ارتفاع الذل، حين يرتفع الاستعمار عنهم، لأنهم لم يرفعوا الذل عن أنفسهم، فلم يكن سعيهم لرفع الذل، وإنما لطرد الإنكليز، فيمكن أن يُطرد الإنجليز ويبقى الذل مع ذلك، ولكن إن طردوا الذّلَّ، فلا يمكن أن يَحُلَّ الأمريكان محل الإنكليز بعد ذلك، وفي النهاية سيخلصهم ذلك أيضاً من اتفاق الروس والأمريكان على إذلالهم..

وأشعر أنه ينبغي أن أنَبِّهَ إلى شيء آخر في الموضوع أيضاً، وهو: أن مسلم اليوم لا يمكنه أن يفهم الشيء إلا طاهراً مُقدساً، أو دنساً حقيراً[1]، أمتا أن يعرف الفضل لأهله على حسب ما عندهم من الفضل والميزات[2]، فليست عند المسلم هذه المقدرة، وهذا ما يهوّن عليه أحياناً أن يشهد شهادة زور على نفسه أو على غيره: على نفسه حين يحقَّرها، أو حين يُعظِّمها أكثر من اللازم، وعلى غيره كذلك حين

---

[1] ومن الاتجاه الثقافي الذي كون هذا الموقف : (إعطاء الأحكام مجردة من مبرراتها أو أدلتها) كما هو الحال في اغلب كتب الفقه والفتاوى .

[2] (فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى) سورة النجم – 32 .

(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) الضحى – 11 .

وهنا ينبغي أن نعرف مكان استخدام كل منهما ، فليس من التواضع أن يخف الإنسان علمه ، بل أن يحدث بنعمة ربه دون أن يزكي ، أو يمدح نفسه .

يبخسه حقه[1]، أو يقدّره فوق قدره، وبذلك يشوه الحقيقة في كلا الحالين، لأنه فقد المقياس، والذي يفقد المقياس يبتعد عن الإنصاف في الإفراط أو التفريط في أحكامه، وهذا ما جعلنا ننظر إلى الهند باحتقار دون أن نعرف لها ميزتها عن غيرها.

والذي يدعوني إلى هذا القول هو ما أريد أن أنبِّه إليه:

في أن يقف المسلم عَدلاً في الوسط، لا في جانب أحد الطرفين، فحين أذكر للهند فضلاً ليس معناه أنه صار مُقدساً عن الأخطاء، ولكن: أليس مما يمتازون به في الهند أن يكونوا في وضع يضربون لنا فيه المثل في إمكان إعطاء قدرة التوازن للمجتمع؟ أليس حسناً أن يمثل المقياس الذي يمكن أن يُرى فيه الفرق بين مجتمعين؟ لأن التفاوت يمكن أن يُلاحظ حتى في التقليد، فالغارق إلى أذنيه غير الذي يصيبه بعض الرذاذ.

وإلى جانب ما أبديت من ملاحظة في إمكان محافظتهم على توازنهم في لباسهم الوطني، كذلك لم تسقط الهند بعد في الديكتاتورية التي ركعت لها سائر الأمم، فإذا أمكننا أن نلاحظ هاتين الملاحظتين البسيطتين، والعيِّنتين الملموستين لكل مراقب دون كبير عناء، إلا أن وراء هذه الظواهر شيئاً يصعب على المسلم إدراكه.

لمَ كانت الهند هكذا؟ ولمَ استطاعت أن تحتفظ بتوازنها، ولو لمدة أطول قليلاً من غيرها؟ ولم تأخَّرت في السقوط ضمن الهوّة؟ – هذا إذا لم يكتب لها أن تتجاوز الهوّة بسلام أيضاً – إن ذلك يرجع فيما إلى أن موقف زعمائها وقادتها الروحيين لم يكن مثل موقف زعمائنا وقادتنا المسلمين، فإن إمكان رؤية الأسباب التي وراء هذه المظاهر، هـ العقبة التي تتقطع عندها قوة احتمال المسلم في البحث عن أسباب الأحداث[1].

والذي أشكَلَ على الأخوات هو: « لِمَ لَمْ تستطيع الأخت المسلمة الاحتفاظ بالتوازن؟ وما الشيء الذي ينقصها؟ «. إن كشف هذا النقص في مستوى المجتمع يحلّ كثيراً من مشكلاتنا، وكذلك يعرفنا أيضاً: لِمَ استطاع الآخرون أن يحتفظوا بالتوازن في الموقف الذي لم تساعدنا فيه طاقتنا على التماسك؟ وهنا نعرف معنى سبب المناعة، ونعرف الطعم الواقي، أو نوعاً من التلقيح الثقافي والاجتماعي الذي يقي الفرد والمجتمع من الأمراض الاجتماعية التي رأينا من مظاهرها ما رأيناه.

هذا الموضوع هو الذي جهد فيه مالك بن نبي – رحمه الله – من أجل أن يُقرب فهمه للمسلمين، ولكن كثافة الحجب الموجودة على أعين المسلمين من جانب، وصعوبة الأسلوب الذي اتَّخذه مالك من جانب آخر هما اللذان حالا دون أن تُحدث كتاباته ذلك الأثر الذي كان ينبغي أن تحدثه.

---

[1] (وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ) سورة الأعراف – 85 .

[1] كتب هذا الكلام في عام 1968 ، وإن أحداث عام 1977 في (محاولة أنديرا غاندي فرض الأحكام العرفية ثم سقوطها في الانتخابات) تدعم كلامي دون أن تنقضه .

إنني لم أختر في ضرب المثل الذي ذكرته مَثَلَ اليابان والصين، لأن كلاً منهما قلدا الغرب وما رفع من مستواه، وواقعنا نحن أسوأ من مثل اليابان والصين، لأن كلا منهما بدأ تقليد الغرب من الرأس (في التكنولوجيا)، بينما نحن بدأنا التقليد من الأسفل (استيراد الأشياء)، وكنا زبائن نشتري، وكانت الصين واليابان تلاميذ يتعلَّمون[1]، ووقفنا نحن عند العنق، مثلما المتحشرج الذي كاد يختنق.

إن موقف الهند يمكن أن يُرى فيه اختلافاً عنَّا، وعن الصين واليابان، وكذلك أكرّر أن الهند لم تكن النموذج الكامل في الموضوع، وإنما فقط كانت مثلاً يمكن أن يُقرِّب لنا حالة خاصة، وهي أن الهند لم تَقبلْ أن تُقلد: لا من الرأس (التكنولوجيا) كالصين واليابان، ولا من الرجلين (استيراد الأشياء) كالبلاد العربية والإسلامية، أقصد: استيراد الأشياء الاستهلاكية، بل أرادت الهند أن تُدين العالم في اتجاهه، وتُخطّ لهم خطاً جديداً في الحياة، غير الذي تعوَّده العالم، وهذا فضلاً عن أنه جديد لا عهد للناس به، فليس من السهل السير في مثل هذه الطرق الجديدة، وإذا أردنا التدليل على أن الهند لم تكن في المستوى المطلوب، فإننا نرى زعيمها الذي كان يدعو الشعب الهندي إلى (طريق الحقيقة) كما كان يسميه، قد مات مغتالاً على أيدي الهنود أنفسهم، كما إننا نَلتمس التردد الذي يصيبها في سيرها، والذي يمكِّن البعض من أن يتجاهل أو ينكر مزاياها.

وأرجع إلى الجزء الذي ينقص المسلم من الصحة الاجتماعية التي تمكِّنه من الاحتفاظ بالتوازن بين المبدأ والواقع مبتدئين من مثل يُقَرّب الأمر إلى أذهاننا.

وأنا أغتنم الفرصة التي تَنَبَهتْ فيها ملاحظةُ الأخوات لهذا الحدث الخاص، والذي دعاني للكتابة في هذا الموضوع، فمثلاً: إذا تصورنا الذي تجده الفتاة حين تريد أن تلبس اللباس الإسلامي من عقبات، فإننا نجد:

1- والدتها، وأفراد أسرتها.

2- وإذا ما استطاعت أن تجتاز المرحلة الأولى بسلام، تأتى العقبة من المجتمع في المدرسة، والشارع، والوظيفة و ... الخ.

3- وإذا ما اجتازت ضغط جو الأسرة، وجو المجتمع والبلد الذي تعيش فيه (مع التفاوت في مقدار الضغط)، وتيسر لها الانتقال إلى المجتمع العالمي، فإنها تكون أمام جو جديد بقيمِهِ، وعاداته، وأفكاره، وأخلاقه.

ففي هذا المجتمع العالمي ستشعر بضغط أشد من ضغط المرحلة السابقة، وهنا تكون ذروة الضغط، وربما يرفع الشيطان مستوى الضغط (لكل على حساب مرحلته)، لأن حرص الشيطان على منع نشر الحق

---

[1] راجع كتاب « في مهبِّ المعركة » فصل : (الأفكار الميتة والأفكار القاتلة) للأستاذ مالك بن نبي .

شديد، فإبقاء الأمر في جو الأسرة فقط أهونُ من الخروج إلى الشارع والمدرسة والجامعة، والبقاء في المجتمع العالمي، وإن أقوى إغواءات الشيطان آخرها، فمن لم يتغلَّب عليه الشيطان في مرحلة ما، يحاول أن يتغلَّب عليه فيما بعد في مرحلة أخرى، وسُبُلُ الشيطان كثيرة:

(لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ، وَمِنْ خَلْفِهِمْ، وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ، وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ، وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ) الأعراف: 16 - 17.

ولكن يمكن أن نرى الأسباب التي تُيسِّرُ وتهوِّنُ عمل الشيطان الخفي، والذي لا يمكن أن يراقب أعماله ومداخله إلا المخلصون من عباد الله، والذين هم على بصيرة، والذين يسيرون على قدم رسول الله ρ، وبالتالي هم الذين يمتلكون سبُل تجنُّب إغواءات الشيطان، فهذا الباب الذي فتحه الله لنا للهرب والتخلص من الشيطان، بل ولطرد الشيطان منه، وهذه القدرة على التمرد على الشيطان هي هِبَةُ الله العظيمة للبشر، ومكانة كرامة هذا الإنسان عند الله رب العالمين:

(إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْغَاوِين) الحجر – 42، إلا من اتبعه باختياره واستسهاله لطريقة الشيطان، والشيطان يعترف: (وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ، إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ، فَاسْتَجَبْتُمْ لِي، فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) إبراهيم – 22. فهذا الشيطان الذي يفقدنا توازننا في هذه المواقف، يمكن التغلُّب عليه، بل ويمكن طرده من مجتمعنا، فإنه لا يستطيع أن يمشي في الطريق الذي كان يمشي فيه عمر رضي الله عنه، لأن عمر يملك توازناً صحيحاً واعياً، لقد فتح عمر العالم ولم يُقلِّد العالم المعاصر له، بل نقل إلى العالم ما العالمُ محتاجٌ إليه، فأخرجهم من أن يكونوا عبيداً للشيطان، أو لبعضهم بعضاً، وإن عمر كان قد أخذ هذا التوازن من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي أسلم شيطانه، وقد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته والناس: كيف يتحرَّرون من غواية الشيطان، فأنار للناس الظلمات التي نحن فيها الآن، ورجعنا إليها من زمان بعيد، وصار الشيطان فينا دولة وسلطان، ولقد كان الشيطان يائساً من أن يعبد، وكان يخاف من عمر، فإذا سلك عمر فَجاً، سلك الشيطان فَجّاً غير فَجِّهِ، كما كان رعب الشيطان عظمياً عندما كان ربعي بن عامر رضي الله عنه يتحدَّث في مجلس قائد الفرس، وحين كان هذا الصحابي يمزق الحُجُب التي تمكِّن الشيطان من التسلُّط على البشر، ومن جعل سلطانه عليهم مُحكماً.

كأني شردت عن الموضوع الذي كنت أبحثه، وهو الضغط الذي يلاقيه المسلم من الجِنَّةِ، ومن الناس الذين حوله يوسوسون إليه حين يريد أن يسلك سبيل الله.

إن فهم الضغط على المسلمة في لباسها واضح للأخوات، لأنهن يعشنَ هذا الأمر، ويَفْهَمْنَ مهمة الشيطان التي مارسها مع آدم عليه السلام أبي البشر وزوجه، ويَشْعُرْنَ بوسوسته، ولكن كم يكون مفيداً لو عرفنا السبب الحقيقي لهذا الضغط الذي ليس على الجلباب فقط، ولا على التي تلبسه، وإنما على المسلم

أيضاً حين يصير ممثلاً للمجتمع الإسلامي وللبلاد الإسلامية، فإن الضغط الذي يرفع الشيطان مستواه إلى درجة عالية قد يضطر البعض إلى تقديم القرابين للشيطان رُعباً منه أو تَقَرباً إليه.

هذه الضغوط المختلفة الدرجات هي خطوات الشيطان التي يخطوها في بسط سلطانه على أتباعه، فنرى من آثارها: هنا خلعُ جلباب، وهناك تَركُ فريضة الصلاة، وهنا فرارٌ من تعليم القرآن، وهناك هروبٌ من الأمر بالمعروف، وهنا تقديم للقرابين على قدمي الشيطان.. خطوات متتابعة، كلها حلقات آخذ بعضها برقاب بعض، إن فكرة عبادة الشيطان ليست فقط في الأخبار التي نسمعها من بعض المجتمعات المتخلِّفة، ولكنها طريقة معينة، وموقف خاص من الشيطان، وهي أيضاً تمارس عنده مستويات مختلفة، وإن أشد إغواءاته آخرها، والشيطان أيضاً يَتَحَضَّرُ، ويترقى مع ترّقي العصر، فيبتكر أساليب شيطانية راقية مناسبة للقرن العشرين، وكيف لا يكون ذلك؟ وقد تمكن بالفعل من إحياء عادة تقديم القرابين البشرية في القرن العشرين، على أعتابه، وهو باسمٌ قرير العين، بل صار يختار نماذج من القرابين لا يرضى بغيرها، وهكذا كان شأنه فيما سبق، فلم يكن يقبل إلا أجمل الفتيات في القرون الغابرة، حين كان يمارس الفراعنة هذه العبادة له، فيُقدمون قربانهم على نموذج معين حين يلقون ملكة الجمال في مياه النيل.. إلى القاع والموت..

ولكن ينبغي أن لا ننسى أن الشيطان تمكن من هذا لأننا لم نَتَفَهَّمْ سُنَّةَ الخلاص من مكائده، مع أن كيد الشيطان ضعيف، ولا يقابله في الضعف إلا الغفلة والبلاهة التي نبديها إزاء دراسة سنة الخلاص من غواية الشيطان وطرقه الملتوية، التي يُلبس بها الأمر علينا، فيظهرُ لنا في كل مرة بلون، كما بين ذلك محمد إقبال – رحمه الله – فقال:

تلَوَّن[1] في كل حال مناة[2]

شاب بنو الدَّهر وهي فتاةُ

الفصل الثاني

عالم الغيب وعالمَ الشهادة

« قَالَ: أَوَلَمْ تُؤْمِنْ؟ قَالَ: بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي » البقرة – 260.

ورد في الكلام السابق جملة (المجتمع الذي يعجز عن أن يقدم للفرد الناشئ فيه توازناً، أو ما يعيد إليه توازنه).

---

[1] أي تتلوَّن .

[2] مناة : اسم صنم اتخذه المشركون إلهاً .

فكيف يحصل المجتمع على هذه القدرة، وعلى هذا الرصيد، الذي يمكنه من أن يدعم الفرد الناشئ فيه؟ هنا نحتاج مرة أخرى إلى مثلٍ يقرّب الموضوع.

إن الفتاة حين تلبس الجلباب الإسلامي، تجد العناء في بيتها، وفي المجتمع الخاص كالمجتمع العربي، ثم تجد صعوبات أكبر عندما تتقل إلى المجتمع العام العالمي.

إن الفتاة المسلمة التي تريد أن تحترم المثل الأعلى للإسلام، تعاني من صعوبات وعقبات كثيرة، تقصم ظهر الكثيرات، إلا أننا نشاهد نماذج تتغلب على عقبات الأسرة، وعقبات المجتمع، ويمكن أن نلاحظ أن كل عقبة أصعب من التي سبقتها، ولكن يمكن أيضاً ملاحظة اللواتي استطعن المقاومة، واقتحام العقبة، ويمكن أن يقع تحت ملاحظتنا وإدراكنا كل خطوة تخطوها الفتاة في مقاومتها النبيلة هذه والأشياء التي تعتمد عليها حين تتمسَّك بمثلها العليا.

وهنا أتذكر يا أختاه ملاحظتك التي كنت قد حدثتني بها في مناسبة ما وتذكرك لمراحل معينة، وتجارب خاصة مررت بها، ولست أدري، إذا كُنتُ قد أصبْتُ حين قَسَمْتُ الأمر إلى مرحلتين: سميت الأولى: مرحلة (الإيمان بالغيب) والثانية: مرحلة (الإيمان بالشهادة).

المرحلة الأولى:

يوم كنت تملكين القدرة على تحدّي العالم والتضحية بكل شيء في سبيل الخلاص الأخروي، ونيل مرضاة الرب، وكفى.. بصرف النظر عن أي شيء آخر من متاع ومتع الحياة الدنيا.

تذكرين مزايا هذه الحالة من الذوبان، والعيش في كنف الرحمن، ولاشك أن تحصيل هذه الحالة جيد جداً، ويمتاز بطعمه الخاص، وحلاوته في القلب، وأنها أيسر انتقالاً وحملاً وانتشاراً، لأن في الإنسان شيئاً يساعد على قبولها عموماً، إلا أن هذه الحالة مع ما لها من حلاوة الذوبان، كذلك لها من مرارة الشعور بالحرمان الخفي، وفيها نوع من السلبية، وعدم القدرة على التأثير الإيجابي، وهذا مما يجعلها محدودة المدى، فاقدة السلطان، تنبئ بجانب من النقص.

ويمكن القول: إنها إيجابية من جانب الطهر والتضحية. إنها سلبية من ناحية كونها تجربة وجدانية فردية، والإنسان في هذه الحالة يرافقه ولاشك انصراف عن المجتمع مشحون ببغض له، أو بيأس منه.

هذه الحالة.. يجب أن يستفاد منها، ولا يتوقف عندها، فهي مرحلة ضرورية يمكن فهمها من خلال قول الأصحاب رضوان الله عليهم: « أوتينا الإيمان قبل أن نؤتى القرآن » أي: أننا قبلنا الاتجاه الإيماني، قبل أن نتفقه في الدين.

والمهم هو الانتقال إلى الحالة الثانية ؛ رؤية آيات الله في الآفاق والأنفس، والتي ندعم بها إيماننا، فمع هذا الصفاء القلبي والنفسي نكون قد تمتعنا بالإيجابية والعلمية، واتخاذ المواقف السليمة.

وكما أن الإيمان بالغيب يعطي قوة التماس، وكذلك فآيات عالم الشهادة تزود الإنسان بنوع آخر من التماسك، ومما يؤسف له أن النوع الأول لا يطمع في أن يغير الواقع، ولا في السيطرة على آيات الله في الآفاق والأنفس، وتزويد الناس بما هم في حاجة إليه، وباختصار: يجب دعم الإيمان الغيبي بالله والكتاب، بآيات الآفاق والأنفس، ليأخذ الإيمان صبغته الإيجابية على المستويين: النفسي، والاجتماعي.

المرحلة الثانية:

وأما هذه فيمكن أن نسميها: مرحلة الإيمان بالشهادة، أو مرحلة الوعي، أو مرحلة فهم أن ما يأمر به الله هو الذي يقتضيه العقل والفطرة، وعين الصواب. فالوصول إلى هذه المرحلة وتحصيل هذا الوعي لذاك الذوبان بريقاً خاصاً لا يملك الإنسان أمامه إلا الاعتراف والإقرار، فهذا النوع من الوعي لأمر الله هو الذي يعطي التوازن للإنسان في جميع المستويات، في الأسرة، والمجتمع الخاص، والمجتمع العالمي.

وكلما زاد الإيمان بالغيب، والإيمان بالشهادة، وتواطأ الجانبان في الموضوع زال الجانب السلبي، وحلت الفعالية محله.

وإنني لأتذكر: لمَ كان واضحاً لديك شعورك بهاتين المرحلتين في حياتك، وينبغي أن نكون أقدر على التعبير، وكشف الأمور التي ساعدت على الوعي، فهذا الوعي هو الذي يساعد على التوازن في كل مجتمع، وهذا الوعي هو الذي يرفع الشعور بالمنبوذية، كما أن هذا الوعي هو الذي يعطي للإنسان هذا المبرر للوجود، وهو الذي يمكِّن من رؤية جانب النقص في العالم. ومن رؤية ما يملكه الإنسان مما يحتاج إليه العالم، وإذا كان هذا الوعي يعتبر في الماضي مزية، فهو الآن ضرورة، لأنه هو الذي يدعم الإيمان بالغيب حتى يصير له البريق المفقود الذي لم نعد نراه، وهذا الوعي هو الذي نحن في شوق إليه، وعند تحصيل هذه الحالة النفسية، سوف يشعر الإنسان بالأناقة وبالعزة وكرامة الإنسانية، مهما كان مجرداً من الأعوان ودعمهم: أشخاصاً كانوا أم أشياء، وسيغدو كما قال الله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: (إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً) النحل -120.

وهذه الحالة هي التي كانت تدعم بلالاً رضي الله عنه أثناء محنة المسلمين في مكة، وهو مجرد من دعم الأشخاص والأشياء، لأنه كان يستلهم الأناقة من عالم الأفكار (الإيمان)، لا من عالم الأشخاص ولا من عالم الأشياء، وتحصيل هذه الحالة اليوم لأي فرد سيعطيه هذا الثبات، مهما كان مجرداً من السند، ودعم الأشخاص والأشياء له.

وبروز هذا الوعي، وانتشاره في المجتمع، هما اللذان يعطيان التوازن المفقود لدينا، وحين تقل كمية الوعي الموجود في المجتمع يظهر عدم التوازن في أفراده في مجالات شتى، ومجموعهُ يؤدي إلى شيئين خطيرين كانت

الأخت المسلمة قد أوجزتهما لا شعورياً في هاتين الحالتين النفسيتين، واللتين تعتبران نتيجتين لا سببين. وهما:

1- الشعور بالمنبوذية.

2- الشعور بضرورة الهرب من المجتمع، والاحتباس في البيت.

ومثل هذه النتائج لسنا في حاجة إلى مزيد من شرحها وبيانها لأنها مدركة بالشعور، ومرئية بالعين، وإنما الشيء الخفي هو: القدرة على تحصيل الوعي، فهو لا يُدرك بالشعور، ولا يرى بالعين، وخفي من وجه ثالث حيث أننا مقتنعون بأنه لا يمكن كشف خطأ عند العالم المتقدم، وكشف صواب عندنا، وبذلك يتم طمس إمكانية الفهم تماماً، ويتم اغتيال مقياس الكشف.

ولعلك تذكرين كم كنت أطيل البحث في الإخلاص والصواب، في القلب والعقل، في الضمير والفهم، إلى آخر المصطلحات الكثيرة التي كنت أوردها في بحث مشكلة المسلمين، فإن كمية الصواب التي عند الإنسان قد تكفي في مرحلة ما، لإعطاء التوازن للإنسان في مرحلة الأسرة، أو المجتمع الخاص، إلا أن كمية الصواب تحتاج إلى نوعية معينة لإمكان السير في طرق وعرة مع القدرة على التوازن وإلا فسيسقط الإنسان صريعاً على وجهه، أو على جانب آخر. وكما يسقط الإنسان الذي فقد توازنه الجسدي والطاقة الحيوية في الجسم، فكذلك إن فقد مجموعة الطاقة الفكرية التي تكون الوعي، فإنه يفقد التوازن الذي أنا بصدد بحثه، والذي أشرت إلى بعض نتائجه المختلفة في مستويات عديدة بدءاً من أنواع الصراع الذي ذكره الله في القرآن الكريم: (الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنْ الْمَسِّ) البقرة – 275. وانتهاءً بالوسوسة في طلب القربان، وسيحظى الشيطان به لأنه قد نجح من قبل في الإخراج من جنة التوازن، وخلع لباس التوازن، فبدت العورات والسوآت، في المجالات كلها، والمشكلة كما أشرت إليها في أن النتائج مرئية بالعين، فنحن نشاهد السَّوْآت مكشوفة في الشوارع، ونسمع – إن لم نَرَ – بأخبار القرابين التي تقدم، وأخبار الجبهات الإسلامية التي يتم تسليمها، وانحسار المسلمين عنها، لكننا لا نتمكن من رؤية الأسباب الخفية لأنها كالشيطان تجري في العروق، وكالشيطان – مرة أخرى – لأن رؤيتها لا تتم بالبصر ولا بالسمع، وإنما يكون إدراكها بالعقل والوعي، لأن من طبيعة الشيطان: (إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ) الأعراف – 27.

ونرجع مرة أخرى إلى تأمل حدثٍ خضع لتجربتنا، وهو الانتقال من مرحلة الإيمان بالغيب فقط، إلى مرحلة الإيمان بالغيب على أساس من دعم عالم الشهادة.

والإيمان بالغيب على درجات، والذي عنده إيمان بالغيب يستطيع أن ينقذ نفسه، على قَدْرِ ما يملك من الإيمان، وهذا القدر يتفاوت من مثقال ذرة من الإيمان، إلى أن يصل إيمان الفرد إلى إيمان يوازن إيمان أمة بأكملها.

والإيمان بالغيب الذي لا يصحبه إيمان بعالم الشهادة قد ينقذ الفرد، لكنه لا يمكن يؤثر في الآخرين، وأن ينال إعجابهم، ولهذا نجد في القرآن الانتباه إلى أهمية عالم الشهادة، حيث فيه صدق ما جاء من عالم الغيب، ولهذا أيضاً نستطيع أن نقول: إن التبشير في العالم الإسلامي قد توقف بسبب قلة بضاعته من عالم الشهادة.

وبقدر ما يحصل المرءِ من إيمان بالغيب وبالشهادة معاً يتمكن من اجتياز العقبات، واقتحامها، وهداية الآخرين، والتأثير فيهم، وبما أن الإسلام جعل أدلة عالم الغيب من عالم الشهادة كان القرآن بذلك خاتم الكتب السماوية أولاً، وللناس كافة ثانياً، وهذا ما يحقِّق له أن يظهر على الدين كله.

إن إدراك الانتقال من الإيمان بالغيب إلى الإيمان بالشهادة يمكن أن يتحقق لكل من الفرد والمجتمع، فالفرد الذي جمع الإيمان بالغيب والشهادة، ينتقل من الانتصار على عقبة الأسرة في إنقاذ نفسه أولاً، ثم يرتفع شيئاً فشيئاً إلى إنقاذ الأسرة، لا مجرد المخالفة وإشباع المثل الأعلى، ويمكن أن نضرب مثلاً للفرد الذي تغلب على مجتمعه المحلي، ودخل المجتمع العالمي بـ « محمد إقبال » – رحمه الله – بما امتاز به من إيمان بالغيب، وإيمان بالشهادة. وبهذا استطاع أن يحصل على التوازن الذي مكنه من مقابلة المجتمع العالمي بدون مركَّب نقص، وهذا يمكن أن يفهمه كل من دَرَسَ إقبالاً بشكل وافٍ.

هذا على مستوى الفرد، ويكمن فهم الانتقال على مستوى المجتمع: بالمجتمع الياباني، فالمجتمع الياباني كان مثل المجتمعات الشرقية محل احتقار من أصحاب الأناقة، إلى أن استطاع الوصول إلى مستوى إثبات الذات، والوقوف بثقل مماثل أو أشد، أمام الآخرين.

ذكر شكيب أرسلان – رحمه الله – في كتابه (حاضر العالم الإسلامي) أن أحد زعماء اليابان قال له ما معناه: « إن العالم ظل يحتقرنا، لا يبالي بنا، إلى أن تعلَّمنا كيف نقاتل، فلما هاجمتنا الروس متحدين القوانين كلها، أفنينا منهم الفيالق، عندها بدأ العالم يحترمنا، وأنتم أيها الشرقيون.. ستظلون كذلك حتى تفوقوا العالم الآخر ».

هذه النصيحة تبين كيف يمكن لمجتمع محلي أن يتجاوز ضغط المجتمع العالمي،بصرف النظر عن الحكم الأخلاقي لهذا التجاوز، كما سبق في البحث والاستشهاد بقوله تعالى: (يُحبونَهم كَحُبِ الله).

ولاشك في أن اجتياز عقبة المجتمع العالمي يحتاج إلى إحاطة بأرقى ما وصل إليه نمو الضمير العالمي وذكائه، أي: في أخلاقه وعلمه، وليس المراد معرفة ما وصل إليه فقط، لأن هذا لا يكفي زاداً من أجل التمكين في اجتياز العقبة، بل لابد من تحصيلٍ أعلى وتطلعٍ أسمى، يمكن معه كشف النقص والاستدراك الذي يبين بوضوح حاجة العالم إلى هذا الفهم الجديد.

وهذا الفهم نوع من عالم الشهادة يقتضيه التمكن من تجاوز ضغط المجتمع العالمي، وعالم الشهادة هو الذي يرجع البريق الذي تمت إليه الإشارة سابقاً، وبيان أهمية عالم الشهادة هو ما نسعى إليه، حث أن المسلم يحصر اهتمامه كله بالإيمان بعالم الغيب، وبترسيخ هذا الجانب فقط والتأكيد عليه، والاكتفاء به، وعدم المبالاة بأهمية أثر عالم الشهادة.

واحترام المبدأ من قبل الآخرين يرجع دائماً إلى ما يتضمنه عنصر عالم الشهادة في الإيمان بالغيب، لهذا يؤكد القرآن دائماً أن عالم الشهادة (آيات الآفاق والأنفس) سوف يشهد لهذا القرآن في المستقبل: (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ) فصلت – 53.

بينما الإيمان بالغيب المفتقر إلى عالم الشهادة لا يجلب احترام الآخرين وإعجابهم، وإن جلب شيئاً فإنما يجلب التعجب من شدة الإيمان، وهذا النوع من الإيمان يمكن أن يكون حتى عند الوثنين.

وأرجو من المسلم أن لا يتعجل، وأن لا يرجع إلى يأسه، إن لم يبن له كل شيء في سطرين أو كتابين، ولعل وجود بعض الخبرة عندي بمرضه يساعدني على عدم اليأس من شفائه، وهذا ما يحميني من التعجل في اتهامه تهمة تجعلني امرؤاً فيه جاهلية، فأعيره بما لا يجوز لي أن أعيره فيه، وإن كنت سوف لا أكف عن تذكيره بتقصيره وببعض نظراته الخاطئة، التي يكون سكوتي عنها بغضاً له، لا حباً به، وستراً عليه كما يظنّ البعض ويريدون مني..

ولكن هذا التمسك الناشئ عن الإيمان بالغيب فقط يستطيع صاحبه أن ينقذ به نفسه، أما أن يؤثر على الآخرين فها مما ليس في الإمكان عمله، إذ أن الإيمان يبدأ بإنقاذ الذات، وينتهي بإنقاذ المجتمع، وإن الإيمان الذي يقتصر على المرحلة الأولى يكون إيماناً سلبياً.

والفرد الذي يمكنه أن يشرح كيفية انتقاله من إيمانه من إيمان بعالم الغيب، إلى إيمان مدعوم بعالم الشهادة بوضوح، يكون قد قام بخدمة كبرى.

ومثل هذا الفرد الذي يتذكر هذه المراحل، يمكنه أن يتصور إمكان وجود مراحل أخرى أيضاً، وإن لم يصل إليها بعد، كما يمكن أن يتصور إمكان اجتيازها، وكما يمكن أن يتصور الزاد المعين الذي يحتاج إليه للاجتياز، لأن لكل مرحلة زاداً خاصاً معيناً بها، وكما يمكن للفرد أن يتذكر المراحل لموضوع معين، ويتصور له المراحل التي لم تأتِ بعد.. كذلك يمكنه أن ينقل ما حدث لهذا الموضوع إلى موضوعات أخرى: من الجلباب في الأسرة وفي المجتمع المحلي الخاص، وفي المجتمع العالمي العام، وكذلك: الصلاة، والدعوة إلى الإسلام.. إلى تحمل السجن، والعذاب.. إلى القدرة على رفض تعذيب المسلمين.. إلى عدم كتمان الإسلام، إلى عدم شنق المسلمين.. الخ.

ثم إنه لا يمكن لأحد أن يجتاز مرحلة من المراحل إلا بتحصيل الطاقة المكافئة لتلك المرحلة لإمكان اجتيازها، فكما يمكن أن يستمر كل جهاز في سيره إلى أن يستنفد القوة الدافعة، ثم يقف، كذلك الإنسان الفرد يستطيع أن يستمر في السير إلى أن يصل إلى مرحلة معينة فوق طاقته، فعندها يقف[1]، إذ لكل إنسان في علاقته بمثله الأعلى شبكةُ علاقات كمية وكيفية، فحسب تمام شبكة العلاقات كماً وكيفاً، يستطيع بها الفرد أن يستمر في تعلقه بالمثل الأعلى، فكلما قلت الشبكات أو تقطعت، وكلما كانت الشبكات منحطة في الكيف، بالية، لا طاقة لها في التحمل، لا يمكن لصاحبها أن يجتاز بها إلا مراحل معينة، أو يؤدي به الأمر في النهاية إلى التبرؤ من هذا النسيج البالي كله، ومن ثم يتوجه وجهة أخرى.

فإذا كانت الأخوات يذكرن كيف تغلبن على بعض الموضوعات. واستطعن أن يلزمن المثل الأعلى فيها، ويتذكرن المراحل التي مَرَرْن بها، وكيف حصلن على الطاقة التي ساعدتهنَّ في فرض الاحترام والإعجاب دون مجرد الانسحاب من المجتمع، بل والسير لغزو المجتمع، فإذا استطعن إدراك ذلك، أو استرجاع فهمه، فهذه التجربة التي نظنها صغيرة، ما هي إلا رصيد كبير، لإمكان إدراك السنة في مشكلة المسلمين، وتطبيق السنة في حلها، ففي مستوى الأسرة مثلاً ينبغي للمرء أن يجتاز معارضة الأسرة، ويفرض احترامه عليها، وفي مستوى المجتمع العالمي ينبغي له هذا أيضاً، وهذا لا يتم بمنطق السهولة، وإنما يقتضي من الفرد ذكاء وإخلاصاً كبيرين، حيث يبدأ في طريق صعب، لا يتمكن من السير عليه إلا بإيمان بالغيب مدعوم بعالم الشهادة (آيات الآفاق والأنفس).

فالفرد الذي يدخل في هذا الموضوع، ويكشف الصواب فيه قد يعارض في أول الأمر، ويجد أن المعارضة تأخذ أشكالاً مختلفة من إهماله ثم الرثاء له لسخافة فكرته واتجاهه، ثم السخرية منه، ثم الضغط عليه بصور مختلفة.. الخ.. إلى أن يبلغ في النهاية إلى تقدير المجتمع واحترامه له.. ولو بعد وفاته.

يقال: إن أول من حمل المظلة (الشمسية) سخر منه في أول الأمر، ثم إن حاجة الناس إليها جعلتهم يقبلونها ويستخدمونها. وعلى قدر ما يثبت المرء صحَّة وجهة نظره في معالجة مشكلات المجتمع والإنسان الذي يعيش فيه بقدر ما يكون ثباته راسخاً أو مهلهلاً. فالفرد الذي يكشف سخف ما عليه المجتمع، والنظرات الخاطئة التي تجرّ على البشر الذين ينتمون إليه مختلف المصائب هو الذي يستطيع أن يحتفظ بالتوازن أمام المجتمع، وأن يهدي المجتمع.

الفصل الثالث

[1] هذا ما نلاحظه في كثير من الذين يقبلون على الإسلام أو المبدأ بحماسة ، ثم نجدهم في مرحلة ما قد فقدوا كل شيء .

« الر. كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنْ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ... » إبراهيم – 1 –

وعدم إدراك المسلم لأهمية جانب عالم الشهادة، يفقده وظيفته، وأداء واجبه، فالإنسان الذي يؤدي واجبه بهمَّة ونشاط، سواء في لعبة الكرة التي يمارسها الشباب للتسلية، أم في واجبات الأسرة اليومية، أم في المجتمع الخاص، أم في المجتمع الأعم، يدرك أنه يعمل عملاً يؤثر في المجموع، فلاعب الكرة ينشط حين يدرك أنه يقوم بعمل يساهم في نجاح فريقه، وأنه ليس عالةً عليهم، أو معيناً لهم فحسب، أو عاجزاً عن أن يساهم في مساعدتهم لرفع مستوى عملهم.

وقد يصاب بعض الناس بأمراض نفسية حين يشعرون بأنهم لا يتمكنون أن يساهموا في شيء من حياة من يعيشون معهم، وإن الفقدان الكامل للشعور بأية مساهمة مهما كلن نوعها يؤدي إلى الانتحار، حين يصل الشعور إلى قمته في بعض المجتمعات، والدوافع التي تؤدي إلى الانتحار لدى الطلاب الذين يخفقون في النجاح هي من هذا القبيل، وقد يصل بهم الإحساس بالإخفاق إلى العجز عن إمكانية مقابلة الناس، فيرون الموت أسهل عندهم من أن يراهم الناس مخفقين في أداء واجباتهم.

ويؤدي الأمر إلى أمراض مختلفة في الحساسية، أو في تلبد الإحساس، والعش الطفولي، ومظاهر أخرى مختلفة.

ومقابل هذا، نجد في الطرف الآخر الإنسان الذي يملك ما يثبت به للآخرين ويدلهم به على أنه يساهم في أعمالهم، أو أنه يستطيع أداء عمل لهم قد يعجزون عنه.

ومرة كنت بين أطفال في مسجد من مساجد لاهور الباكستانية، وقد أحاطوا بي ينظرون إليَّ، وأنظر إليهم، ولكن لا يستطيعون التكلم معي، ول أستطيع التكلم معهم لاختلاف لغاتنا، فخطر لي أن أتعلم منهم الأعداد من 1.. إلى 10 باللغة الاوردية، وبشيء من الإشارة واستخدام بعض الأعداد، وأريد أن أتعلمها منهم، فرأيتهم فرحوا لذلك، وسروا سروراً عظيماً، خاصة حين أمكنهم أن يساعدوني في تعلم هذا الذي لم أكن أعلمه، ويعلمونه هم. فصار كل واحد منهم بذلك أستاذاً لي.

وبهذا المثل البسيط يمكننا أن نفهم السر في انطلاق مسلمي الصدر الأول بأقصى توتر إيجابي شهده العالم، إنهم كانوا يشعرون بأن الله ابتعثهم ليقدموا حقيقة هذا الدين الذي يكّرم الإنسان، ويخرجه من ذل العبودية لغير الله، إلى عبودية الله وحده، ومن الظلمات إلى النور، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة ...

فمعنى هذا أن الإنسان الذي يدخل بين بشر آخرين، ويستطيع أن يساهم في حل مشكلة من مشكلاتهم، يشعر بمكانته بينهم، فلا يدخل ذليلاً مهيناً، بل يشعر بكرامته ومكانته.

هذا شأن فهم الفرد لوضعه في الأسرة، فإذا شعر أنه لا يمد الأسرة بشيء فإنه لا يصعب عليه فقط حل مشكلاتها وإنما هو عالة عليها أيضاً، وكذلك يمكن تصور هذا الوضع مع مجتمع معين، ومع المجتمعات الأخرى في العالم في المساهمة في حل مشكلات العالم.

فَفَهْمُ علاقة الفرد بالأسرة، ساهم في معرفة علاقة الأسرة بالمجتمع الخاص، وفهم علاقة الأخيرين يساهم في فهم علاقة المجتمع الخاص بالمجتمعات العالمية، فكما أن شعور الفرد بأنه يساهم في إقامة مجتمعه، ويستطيع أن يقدم له شيئاً. إن هذا الشعور يعطيه التوازن والشعور بالكرامة، كذلك المجتمع الخاص مع المجتمع العالمي يحدث له الشعور نفسه، فيرفع من معنويات الأفراد المنتسبين إليه ...

إن موقفاً مُشرفاً لممثل مجتمع ما، في المجتمع العالمي في الوقوف أمام الأخطاء دون استمرارها، أو اقتراحٍ ما، يخرج العالم من أزماته، وينتزع من المجتمعات العالمية الإعجاب والاعتراف.

إن إدراك أثر مثل هذا الموقف في معنويات الأفراد الذين يكون هذا شأن ممثلهم سوف يرفع بهم إلى مقام كبير، وسوف يشعرهم بأثر الخدمة اليومية التي يقومون بها في بناء مجتمعهم، وأثرها في العالم أيضاً، وربما استطاع غاندي أن يحمل مثل هذه النسمات المنعشة إلى حد ما، إلى قلوب الملايين من أمته، ويرفعهم من درك الحقارة إلى الشعور بالذات، وببعض المعاني التي يمتاز بها.

والمجتمع الإسلامي اليوم محروم من مثل هذه النسمات، وهو غائب لا يساهم في بناء العالم، ول في حل مشكلاته، بل لا قُدرة له على أن يحول دون التآمر العالمي عليه، وبقدر ما يحرص الآخرون على التآمر عليه، بقدر ما يسهِّل هو مهمتهم، وذلك بغفلته، ولوثته، وهم (مسلمو اليوم) أدنى من (تَيْم) القبيلة التي يصفها الشاعر بقوله:

ويُقْضى الأمْرُ حين تَغيبُ تَيْمٌ

ولا يُستَأمرُونَ وهُمْ شُهُودُ

بل إن العالم الإسلامي لا يدخل المجتمع البشري كمجتمع مسلم أو باسم مجتمع مسلم، لأنه فقد كيانه كمجتمع مسلم، وإنما يدخل المجتمع العالمي كمجتمع قومي أو وطني، فمعنى هذا أن أمره لم يقتصر على عدم مشاركته في صنع العالم، بل ليس له وجود، أو حضور شخصي ذاتي، فقد زالت شخصيته من الوجود الدولي، فالمسلم لا يحضر العالم اليوم كمسلم، وإما يحضره كهندي أو عربي أو إيراني، أو تركي.. الخ.. وهذا الوضع قضى على شهود الشخصية المعنوية، وهنا سقط وجوده في الأسرة الدولية، فكيف يمكن أن يتحدث عن مهمته، وهو لما يولد بعد؟ ولما يولد حضوره؟ وإن البحث في أية قضية يأتي بعد وجود صاحبها. وكان عملاً ناجحاً بالنسبة لمن قرروا مصير الرجل المريض، حين أمكن نفي الشخصية الإسلامية من الوجود بهذا الشكل الذي آل إليه، وحُوفِظَ على استمرار نفيه، حتى لا يثبت وجوده.

وإن فهم القضية بهذا الشكل يساعد على إحياء هذه الشخصية، وعلى توضيح ما يمكن أن يساهم به (بعد إحيائها) في بناء العالم.

فالفرد المسلم عليه ضغط وأثقال من هذه الأوضاع التي يعيشها، فلا وجود له، ولا يُعْتَرَفُ به في المجتمع العالمي، ولا وجود له حتى في دولته القومية الخاصة، وإن كان له وجود قومي في دولته الخاصة، وله وجود دولي كعربي أو تركي ... إلا أنه لا وجود له دولياً كمسلم إنما كمواطن فقط.

والمسلم لا يُدركُ أبداً هذا التفصيل، ولا كيف حدث له، ولا كيف يرفعه عن نفسه، وإنما فقط يحمل ضريبة الذل والمنبوذية والهوان حين يمارس عمله اليومي في وجوده كإنسان، فهو مُعترف به كإنسان لا كمسلم، والمشكلة كامنة في الأمية الفكرية التي يعيشها العالم الإسلامي، فهذا الوضع الفكري هو الذي يَشُلُّ كل قواه، ويجعل طاقاته معطَّلة، ومُسخّرةً لصالح غيره، ثم لم يدرك المسلم بَعْدُ أن جُهده اليومي هو الذي يمكن أن يغير هذا الوضع، وإنما يظن أن أعمالاً أخرى كبيرة هي التي ستغيرّ، ولا يفطن البتة إلى أن عمله اليومي متصل حتى بهذه الأعمال الأخرى والكبيرة التي ينتظرها، وأن هذه الأعمال لا توجد إلا بهذه الجهود اليومية التي ستغير من النفس، فالأمر كما يقول الأستاذ مالك بن نبي – رحمه الله –:

« ... إن التاريخ لا يبدأ من مرحلة الحقوق، بل من مرحلة الواجبات المتواضعة – في أبسط معنى الكلمة – الواجبات الخاصة بكل يوم، وبكل ساعة، بكل دقيقة، وليس في معناها المعقَّد كما يعقِّده عن قصد أولئك الذين يعطِّلون جهود البناء اليومي بكلمات جوفاء، وشعارات كاذبة.. يعطِّلون بها التاريخ، بدعوى أنهم ينتظرون الساعات الخطيرة والمعجزات الكبيرة »[1].

ويمكن أن نضرب مثلاً آخر لتوضيح هذه القضية، ذلك التاجر الذي يدخل السوق سواء كانت سوقاً محلية أم عالمية فإن مما يحدّد موقفه من السوق أن يعترف الأشياء التي تروج فيها، وقيمة ما يعرض هناك، فحين يعرف حاجة السوق، وميزة ما عنده على ما يعرضه سواه، عندها يدخل السوق وهو متمكّن ...

وكذلك الحال في سوق الأفكار العالمية، حيث تعرض فيها الأفكار المخصصة لحل مشكلات العالم، فمن لم يعرف قيمة هذه الأفكار المعروضة وأهميتها في حل مشكلات العالم، ويعرف الحلول التي يقترحها أصحاب الرأي في هذا المجال، ونتيجة التطبيقات، لا يمكنه أن يعرف قيمة ما عنده، ولا أن يعرف كيف يتم له تعريف العالم على ما عنده من بضاعة وأفكار.

وهذا هو الغياب من جانبين: غياب عن معرفة ما عند العالم، وغياب عن معرفة ما عنده، وهذا هو موقف العالم الإسلامي والمسلم من سوق الأفكار العالمية، إذ لا يشعر أنه يملك شيئاً يساهم به في حل أزمات العالم، بينما اليوم تحول الصراع إلى الفكرة حتى الذين يجعلون القيمة الكبرى للاقتصاد، نراهم لا

[1] ابن نبي مالك – في مهب المعركة ، (القاهرة : مكتبة دار العروبة الطبعة الأولى – 1961) ص 101 .

يهملون، بل ولا يستطيعون أن يهملوا أهمية الأفكار، فعند التنافس العالمي يقول كل منهم: « إن الفكرة التي بنيتُ عليها اقتصادي هي الفكرة الصحيحة بدليل النتائج ».

فإذا كان العالم اليوم يعاني من مشكلة الحرب، ويتطلع إلى السلام، ولا يجد الطريق التي توصله إلى ذلك الهدف، فيمكن بذلك أخذ فكرة عامة عن المشكلة التي يعانيها العالم والأطباء الذين يتسابقون في وضع حلول لهذه المشكلة.

فحين يتأملُ البصير تاريخ هذه القضية، والمعالجات التي يعالجونها، والنتائج التي وصلوا إليها ويتأمل (سبل السلام) المائدة – 7، يمكنه أن يعرف الزاد الذي عنده عندما يدخل السوق، تلك السوق التي غدت موضوع مقامرة على العالم، فيدخلها لينقذ العالم.

وهذا ليس مستحيلاً.. ولكن يحتاج إلى تأمل، فنحن مع الأسف نكره التأمل، ونكره التفكير، ولا نريد هذه الموعظة أصلاً!!

الفصل الرابع

الشُّعور بالمنبوذية

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ)

المنافقون – 8 –

ومن مناسبة حادثة خلع الجلباب، نستطيع أن نستفيد في فهم قاعدة أساسية وهي:

كيف يحدث الشعور بالمنبوذية لدى من لبس ثوباً معيناً؟

والواقع أن اللباس ليس مصدر المنبوذية، وكل ما بين المنبوذية واللباس من علاقة: هو أن اللباس ليس أكثر من مُذكِّرٍ، أو مثير لحالة المنبوذية التي وصل إليها المسلم، وشأن اقترن رنين الجرس بتقديم الطعام للمخلوق الذي تجري عليه التجربة، حتى أصبح صوت الجرس وحده كافياً لإسالة لعاب هذا المخلوق، وكذلك حين رُئيَ الإنسان المنبوذ في لباس معين، صار اللباس وحده كافياً لإثارة الشعور بالمنبوذية، مع أنه ليست بينهما علاقة سببية في الأصل.

والذي لا يتأمل هذا، يلتبس عليه الأمر، ويخضع في حياته للمنعكسات الشرطية مبتعداً عن بحث الأسباب الأصلية البعيدة، بل يصبح ألعوبة بيد من سواه، وقد جرَّب العلماء هذه الأمور في اقتران الشيء بأمر مثير له، وبينوا: كيف تتكوَّن؟ وكيف تُنسى عند الحيوان وعند البشر؟ وحددوا عدد المرات التي تنشأ بها العلاقة، أو تبطل، كما حددوا الزمن الذي ستغرقه هذا الأمر.

وعلى هذا الأساس يمكن النظر إلى الجلباب واقترانه بالشعور بالمنبوذية، فالمسلم الذي عاش منبوذاً أمداً طويلاً، صار كل شيء مرتبط به يوحي بالمنبوذية، وفي الحقيقة إن الثوب أقلّ هذه الأشياء: فالصلاة والصيام وأمور العبادة الأخرى، أشدّ من الثواب اقتراناً بالمنبوذية، حتى ليصل الأمر ببعض ضعاف النفوس ممن يشعرون بالمنبوذية أنهم يُظهرون العداء للمسلم كي يُظهروا براءتهم من المنبوذية أمام العالم!!.

والمنبوذ الحقيقي هو (مسلم اليوم)، فإذا رفعنا عنه المنبوذية – بإعادة التوازن لكيانه – فترة من الزمن نكون قد قطعنا العلاقة ما بين المنبوذية وبينه، ولا تعود الأشياء المرتبطة به تثير الشعور بالمنبوذية، ولم يعد الجلباب أو الصلاة أو الصيام أموراً يستحي منها، بل ترجع هذه الأمور المقدسة كما كانت من قبلُ مظهراً لعزة الإنسان الملتزم بها، وطالما بقي الشعور بالمنبوذية عند المسلم، فلا جدوى من تغيير شيء في أوضاعه.[*]

* جدول مصطلحات الشعور بالمنبوذية:

المصطلح	في تجربة بافلوف	في موضوع بحثنا
المثير الطبيعي	الطعام	حالة التردي (التخلف) التي وصل إليها مسلمو اليوم
المثير الاصطناعي	دقات الجرس التي ترافق تقديم الطعام للمخلوق	الجلباب – الصلاة – الصوم ...
الاستجابة	سيلان لعاب المخلوق الذي تجري عليه التجربة	المنبوذية – والشعور بها
الانطفاء	عدم سيلان لعاب المخلوق عند سماعه رنين الجرس	عدم الشعور بالمنبوذية عند رؤية أو عند لبس الجلباب، أو القيام بالفرائض
سبب الانطفاء	إذا استخدمنا الجرس عدة مرات متتالية دون تقديم الطعام للمخلوق	إعادة التوازن لكيان المسلم وذلك بتغيير ما بنفسه ...

[*] وللتوسع في فهم موضوع الشرط المنعكس يمكن مراجعة – مثلاً – كتاب علم النفس التربوي للدكتور أحمد زكي صالح .

وهذا ما بيَّنه مالك بن نبي – رحمه الله – في كتابه (في مهب المعركة) حين تحدّث عن المرأة، وفرّق ما بين التهور والتطوّر، واعتبر المظهر ليس كافياً للتطوير الحقيقي، لا للرجل ولا للمرأة، وأنه لا بدّ من تغييرٍ جذريٍّ في النفس على أساس قواعد مُقررة في علم النفس والاجتماع.

فإذا غيرَّنا النفس، ورفعنا الشعور بالمنبوذية الذي اقترن بلباس معين، يمكن للباس نفسه أن يثير الشعور بالكرامة الذي أصبح يملأ نفس المسلم، فهذا معنى ما يقال: « ينبغي أن لا تحجب ظاهرة شكلية عنَّا مشكلةً حقيقةً، أو موضوعاً جوهرياً، كما تحجب عنا الشكلية الظاهرية لحركة الشمس الحقيقة الموضوعية من حركة الأرض حول الشمس ... ».

والظاهرة الشكلية في موضوعنا هنا، هي بعض الأوضاع التي تلابس الحقيقة الجوهرية، فكلٌّ من التخلُّف أو النموّ، أو الشعور بالأناقة، يمكن أن تلابسها مظاهر شكلية، كاللغة، واللباس، والقوم، وما أشبه ذلك، فهذه ليست أموراً جوهرية، وتحصيلها أو التزيُّن بها لا تجعل الإنسان يحصل المضمون الحقيقي.

فينبغي أن نتوجه أولاً إلى إعادة التوازن لكيان هذا الإنسان حتى نخلصه من المشكلات الكثيرة المتعدّدة التي لا تُحصى، سواء أكانت موجودة الآن أم لم توجد بعدُ.

كما وقعنا في المشكلة نفسها من جانب آخر حين ظننَّا أننا قد صرنا مُكرمين حين لبسنا ثوب الذين يشعرون بالكرامة، فالفرار من خطأ، أوقعنا في خطأ لا يقلّ عنه، فصرنا بذلك كالمستجير من الرمضاء بالنار، وكل سعينا كان في ضلال، لأننا لم نبدأ من حيث أمرنا الله أن نبدأ بع عندما نريد أن نغير شيئاً ما، ألا وهو ما بالنفس .... وصدق الله تعالى إذ يقول:

(إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أخوك ك جودت سعيد

يوم الاثنين 18 جمادى الأولى 1388 هـ

12 آب 1968م

كتب للمؤلف

مذهب ابن آدم الأول: أو

(مشكلة العنف في العمل الإسلامي)

يبرز المؤلف في هذا البحث الأسلوب الذي زكاه الله في موقف ابن آدم الأول من أول نزاع حدث في مطلع البشرية..

ليكون هذا الأسلوب المزكى من قبل الله نبراساً للبشرية في خط سيرها الطويل. ويهدف إلى إيجاد أسلوب آخر لحل مشكلات البناء. وهو وإن كان يوجه الكلام إلى الإسلاميين ليدلهم على الطريق، إلا أنه لم يقصد الاقتصار عليهم، بل يريد أن يضع أمام ضمير الآخرين هذا الأسلوب في العمل ليكون موضع تأملهم. ويبين أن على المسلمين من أجل استئناف الحياة الإسلامية أن يقوموا بعملية البلاغ المبين، وان يؤدوا واجباتهم بصرف النظر عن الحق الذي لهم.

الإنسان: حين يكون كلاً وحين يكون عدلاً

ينطلق المؤلف من شرح قوله تعالى: « وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لا يأت بخير. هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ».

ويهدف إلى بيان أن البشر يمكنهم باستخدام سنن تغيير النفس والمجتمع، رفع أو خفض مستوى الأفراد والمجتمعات. ويشرح فكرة « الفعالية »، ويبين أن أهم شروطها.

ـ أن نبحث أسباب الأحداث، ونعترف بجهد الإنسان فيها.

ـ أن يتحرك الإنسان بين حدّي الرجاء والخوف، من أجل خير يجلبه أو شر يدفعه..

العمل قدرة وإرادة

إذا توفرت للعمل الإرادة الجازمة والقدرة التامة مع استيفاء شروطه وانتفاء موانعه، وجب وجود الفعل ضرورة، وتم حصول العمل بإذن الله تعالى.

إن لدى المسلمين من الإرادة والقدرة المادية ما يكفيهم للإقلاع، وإنما عوزهم الحقيقي قي القدرات الفهمية.

وهذا الكتاب يتناول مشكلة العمل بأسلوب موضوعي على صورة قوانين رياضية:

الإرادة الجازمة + القدرة التامة = العمل الناجح.

العقل + المثل الأعلى = الإرادة.

العقل + وقائع الكون وأحداث التاريخ = القدرة التسخيرية.

حتى يغيروا ما بأنفسهم

ينطلق المؤلف من شرح قوله تعالى: « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ». ويحاول أن يوضح أن أساس مشكلة تخلف المسلمين، هو جهلهم أن مشكلتهم تخضع لقوانين يمكن كشفها وتسخيرها.. وبالتالي اصبحوا ألعوبة بيد أعدائهم الذين يفرضون أن المشكلات تخضع لقوانين يمكن كشفها وتسخيرها..

ويبين المؤلف أن الدعوات التي تركت أثرها العميق في تاريخ البشرية، إنما بدأت تأثيرها على نفس الإنسان وفكره فغيرتهما ؛ وان هذا التغيير يخضع لقواعد وقوانين هي سنن الله في النفس والمجتمع التي يرتقي المجتمع أو يتخلف بحسبها ...

فقدان التوازن الاجتماعي

يدرس الكتاب إنسان مجتمعنا الذي يتردد بين مبدئه وضغط الواقع. ويبين أن الانفصام الاجتماعي الذي يعانيه مسلم اليوم، هو الذي يفقده توازنه ويحمله على الانسحاب من المجتمع أو الذوبان فيه. وان من الشروط الأساسية لتحقيق التوازن الاجتماعي:

- أن ندخل المجتمع ونحن نعتقد أن لدينا عقيدة تنقذه.
- أن ندخل المجتمع لنغيرِّه، لا لنقلِّده.
- أن نقدم الإيمان بأدلته من عالم الشهادة.

المحتوى